

## الحوار في التاريخ الإنساني

- المبحث الأول: الجذور التاريخية للحوار.
- المبحث الثاني: الحوار مع الأمم السابقة في القرآن الكريم.
- المبحث الثالث: الحوار بين الرسول ﷺ والكفار.
- المبحث الرابع: الحوار مع الملحدين.
- المبحث الخامس: الحوار مع منكري البعث.
- المبحث السادس: تاريخ الحوار مع اليهود في المدينة.
- المبحث السابع: الحوار مع المنافقين.
- المبحث الثامن: الحوار مع المؤمنين.

obeikandi.com

## الحوار في التاريخ الإنساني

### المبحث الأول

#### الجذور التاريخية للحوار

اعتمدت المجتمعات من أقدم العصور على الحوار في التعليم، ونقل الأفكار والقيم والثقافة السائدة في المجتمع، والمحافظة عليها، ولم يكن الحوار مجرد أداة تعليمية تستخدم داخل المدرسة التي هي في جوهرها شكل من أشكال العلاقة القائمة بين الأفراد والمؤسسات المختلفة أيضًا داخل المجتمع.

وبالرجوع إلى تاريخ الحوار يتضح أن طريقة الحوار أصبحت طريقة ذات ملامح متميزة على يد سقراط، صحيح أنها كانت لها بدور عند السوفسطائيين، ولكنها لم تكن قد اتضحت معالمها، وقد اعتمد السوفسطائيون على المقدرة الكلامية والقوة البيانية أكثر من اعتمادهم على الدليل والمنطق والبرهنة؛ فكل كلام مزوق عندهم وكل عبارات منمقة في رأيهم هي الطريقة لكسب المنفعة، أما البحث وراء الحقيقة فعبث باطل.

وقد استعمل اليونانيون الجدل بمعنى التهاور أو التخاطب بين الناس؛ حيثما كان أهل أئينا يعدون الجدل فنًا عاليًا، أو فن البحث عن الحق.

أما طريقة الحوار عند سقراط، فتعتمد على طرح الأسئلة والإجابة عنها، ومناقشة الإجابات عن طريق الأسئلة أيضًا.. وهذه الطريقة تمر بثلاث مراحل: الأولى أسئلة يقصد منها أن يكشف الشخص بنفسه أنه على باطل، وليس محققًا في اعتقاده.

والمرحلة الثانية أسئلة يقصد منها أن يعرف الشخص أنه جاهل لا يعرف الحقيقة؛ لذا فهو في حاجة إلى سقراط يرشده إليها، وأخيرًا.. أسئلة يقصد بها أن يصل الشخص المخطئ أو الجاهل إلى الحق والصواب بنفسه.

وفي العصر الجاهلي مارس العربي نوعاً آخر من المحاورات في المنافرات، وهي تقترب من خطب إصلاح ذات البين التي كان يقيمها الجاهليون؛ فيقيم المتخاصمون حكماً يقران به، وينهض كل منهما للتفاخر أمامه، متغنياً بشرفه وشرف ذويه، وإظهار عيوب منافسه ومساوئه. والمنافرة أو المفاخرة - بمعنى واحد - هي المباهاة في الجمع المحتشد بفضائل الأصل، ومكارم النسب، ومحاسن الأخلاق، وعلو المنزلة، وروعة المكانة، وجيليل الفعال؛ ومن ثم كانت الجاهلية تعدها ضرورة طبيعية لكيانها؛ تأليفاً للقلوب حول القبيلة، وكان الحوار في المنافرة يبدو أكثر حيوية وتنوعاً، وأقصر من خطبة إصلاح ذات البين، كما أن العراك يظهر أكثر عنفاً؛ كأن الخصمين يتصارعان ويتجادلان فيها بالقول بما هو أحدٌ من وقع السيف، والمعاني تبدو فيها مباشرة صريحة، ولا يلمح إليها، والفرق بين المفاخرة وبين خطب إصلاح ذات البين أنه في خطب إصلاح ذات البين ترى المتصالحين يأخذون بالعقل والروية بقدر ما ينساقون بالانفعال، أما المتنافران، فإن كلا منهما يصدر عن غضب وحقد، وتنزع به الانفعالات نزوعاً، ولا تدع للعقل والرؤية إليه سيلاً<sup>(١)</sup>.

### الحوار في العصر الإسلامي؛

كان العصر الإسلامي في مجمله تنازعاً فكرياً اجتماعياً، إلى جانب التنازع السياسي الذي حدث بين الرسول ﷺ والقريشيين في مستهل الدعوة، وبين المشركين والمسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ. وقد ازدهر دور الكلمة في المجتمع، وخاصة بعد أن أخذ التخاصم بين النبي ﷺ والقريشيين صورة الحرب الفكرية، وما تطلبت من جدل وحوار؛ فلا يكاد يقال قول حتى يعارضه رأي آخر؛ لكي يولد من الإنسان القديم مرة أخرى إنسان جديد متفتح على عوامل الخير والعدالة.

ولهذا كان من الطبيعي أن يأتي الإسلام - الذي أطلق العقول، وحطم أغلال الوثنية، وهدم الفلسفة الإغريقية - ليعلم المسلم كيف يحاور، وكيف يجادل بالتي هي أحسن، وهذا

(١) بثينة محمود محمد: فعالية مجموعة من الأنشطة الوظيفية لتنمية مهارات الحوار لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية، القاهرة، جامعة حلوان، كلية التربية، ١٩٩٩م، ص ٧٣.

الحوار لا يتحقق إلا بتبادل الآراء في جو تسوده الشورى والحرية والصراحة؛ ومن هنا فإن الإسلام لم ينظر إلى الحوار على أساس أنه ترف فكري، يدرّب الإنسان على الانتصار والتفوق؛ بل على أساس أنه ضرورة تكسب الإنسان القدرة على استعمال أدوات الدفاع عن الحق بطريقة أكثر مرونة وذكاء؛ ولهذا ذم الله الأمم السابقة التي تتبّع آراء أسلافها دون تفكير وتمحيص، وعن عمى وجهل.

وقد كان للأفكار الجديدة، التي دعا الإسلام جميع الناس إليها؛ حيث دفعهم إلى أعمال الفكر والتحرر من القوالب الجامدة؛ أثرها الكبير في ازدهار الحوار، كما كان للصراع الذي دار بين الدعاة إلى الله والمشرّكين المعاندين وغيرهم في محاولة كل منهم جذب الآخر إليه عن طريق الإقناع والاستمالة؛ أثره الكبير أيضًا في ازدهار الحوار؛ وذلك من اللحظة الأولى التي أمر فيها الله الرسول ﷺ أن يصدع بما يؤمر، وكانت أولى وسائله هي الحوار مع قومه.

وقد ضرب الرسول ﷺ أعظم الأمثال حين حاول أن يقنع قومه في حوار رائع؛ فقال لهم: أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؛ قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً قط، قال: فيني نذير بين يدي عذاب شديد.. وكأنه ﷺ يضرب لنا مثلاً لأعظم محاور يستطيع أن يستخدم أدوات الإقناع والأدلة والبراهين والشواهد؛ ليقنع قومه بالدين الجديد. ومن ذلك أيضًا حوار مع المشركين عندما جاءوا يجادلونه ويستميلونه بالمال تارة، والجاه تارة؛ لينصرف عن الدين<sup>(١)</sup>، وكان الرسول ﷺ دائماً الطرف الأكثر إقناعاً بقوة حجته، وسلامة منطقته.

كما ساعد مبدأ الحرية التي أقرها الإسلام - أي حرية النقد لإصلاح المجتمع، وإصلاح المنكر باللسان أيضًا - على ازدهار الحوار. وفي حياة النبي ﷺ كان الناس يجتمعون في مجالس الرأي والمشورة. وبعد موت النبي ﷺ حدث اجتماع السقيفة<sup>(٢)</sup>؛ ليتحاوروا من أجل الوصول إلى الحق، وحتى بعد أن مات سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالطعنة، انبرى كل منهم ليبدلي برأيه، ويشير على الآخرين في حوار هادئ رزين عاقل.

(١) إبراهيم أحمد الوقفي: الحوار لغة القرآن والسنة النبوية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٣.

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٩، ص ص ٢٠٧-٢١٣.

وقد كثرت المحاوراة في الخطابة الإسلامية، وأصبحت أسلوباً أساسياً مؤثراً من أساليبها المتعددة؛ تبعاً لتعدد المواقف الداعية إليها؛ من تبادل للآراء، أو لاختلافها أو مطالبة فئة معينة من طوائف المجتمع بحق أو بمطلب خاص. وهنا يشتد الحوار، وتتولد المحاوراة؛ لأن كل فئة تريد أن تدلي برأيها، وفي الوقت نفسه تستند إلى حجة تؤيد بها دعوها، وتدحض حجة محاورها.

ولقد اتخذت المحاوراة في الخطابة الإسلامية ألواناً مختلفة ومتعددة؛ فأحيانا تكون هادئة ومثمرة؛ فلا يراد منها إلا الوصول إلى الحق ومعرفة الصواب والتزامه؛ مثل الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ وبين الصحابة قبل غزوة بدر، وكذلك حوارهم بعد الغزوة حول ما يجب عمله تجاه الأسرى؛ وكذلك الحوار بين المهاجرين والأنصار يوم السقيفة، وجميعها حوارات هادئة لا غلظة فيها ولا لجاجة، ولا مغالطة ولا انفعال لإثبات ذات على حساب الآخرين، وإنما تجد جهداً مضمناً في البحث عن الحجة التي تؤيد بها الآراء للوصول إلى خير المسلمين، وتجد بلاغة في القول، وجمالاً في التعبير، ودقة في صوغ العبارات، مع حسن التكيف مع المواقف، التي تفرض نفسها دون قلق، أو اضطراب، أو خلل، أو بلبلة في العبارات ذاتها.

وعلى العكس من ذلك تجد حوارات المشركين مع الصحابة أو مع الرسول ﷺ؛ حيث تغلب عليها العصبية والجاهلية؛ إذ الهدف ليس الوصول إلى الحق والصواب، بقدر ما يكون العناد واللجاج والمكابرة، وتحكيم الأهواء والأغراض، والصد عن الدعوة الإسلامية.

وأول مصدر تعلم منه المسلم فنون الحوار المختلفة هو القرآن الكريم؛ فقد جاء وبه فنون تعليم الكلام؛ معتمداً على الإقناع والتأثير بطريقة دفعت الناس إلى أن يتبعوه ويسيروا على نهجه، والحجج والبراهين التي تعطي الفكرة القوة الإقناعية.

والقرآن الكريم يجعل كل قضاياها سبيلها الحوار، ويجعل كل خلافه مع أعدائه ومخالفه قائماً على الحوار المنتج الهادئ الرزين، ولا يجعل من القوة سبيلاً واحداً إلى التعامل مع المخالفين، وإنما يجعلها عقوبة للمصرين على الباطل بعد سطوع الحق وبيانه؛ لتكون القوة أيضاً وسيلة من وسائل إعادتهم إلى الحق لصالح أنفسهم، والدليل على ذلك أن الله تعالى جلت قدرته يتخذ ذاته العليا مثلاً في المحاوراة؛ فلا يفرض قوته وقدرته، وإنما يبسط حوار

قبل القوة، ويضرب لنا سبحانه وتعالى أمثلة كثيرة على ذلك؛ ومنها على سبيل التمثيل حوار مع الملائكة على نحو ما شرحناه في مواضع عديدة في هذه الدراسة.

### الحوار في عصر الصحابة:

امتاز الحوار في عصر الصحابة بأداب سامية، وربما كان ذلك يرجع إلى احتكامهم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عند وقوع الخلاف، كما أن المجتمع لم يكن قد ابتعد كثيرا عن هدى النبي ﷺ وسنته.

وكانت الحقيقة وحدها هدف المختلفين؛ حيث لا يهتم أحدهم أن تظهر الحقيقة على لسانه أو على لسان أخيه، وكذلك امتازوا بالتزامهم آداب الإسلام مع انتقاء أطيب الكلام، وتجنب الألفاظ الجارحة في الحوار والجدال، مع إحسان كل منهم للآخر، وتنزههم عن التماهي في الحوار بغير حق، وبذهم أقصى أنواع الجهد في موضوع البحث؛ مما يضفي على الحوار صفة الجدية واحترام الآراء المطروحة، ويدفع المخالف لقبول الرأي الصحيح دون شعور بالحرج والضيق<sup>(١)</sup>.

والأسباب التي كانت تؤدي إلى اختلاف الصحابة في مجموعها لم تكن لتخرج عن تباين في فهم النص: لغوية كانت أو اجتهادية، وتعالج بأدب إسلامي خالص؛ لذلك سرعان ما كانت هذه الاختلافات تضحل وتزول بقاء الرسول ﷺ، أو الاحتكاك إلى نص من القرآن أو السنة، أدركه بعضهم وغاب عن الآخرين؛ لأن غايتهم كانت نشدان الحق وإصابة الحكم الصحيح، ولكن بوفاة النبي ﷺ الذي كان مصدرا للتشريع ومرجعاً للمسلمين في كل اختلافاتهم، بدأ الجدل يزداد لكثرة المشاكل المستجدة، وظهور كثير من الأمور التي اختلف فيها الصحابة، وجاء الحوار حول ثلاثة موضوعات؛ هي:

أ- الحوار حول الإمامة أو الخلافة.

ب- الحوارات التي كانت في عصر عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ج- الحوارات التي كانت في عصر الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(١) بركات محمد مراد: منهج الجدل والمناظرة في الفكر الإسلامي، القاهرة، الصدر لخدمات الطباعة، ١٩٩٠ ص ٤٧.

### الحوار في العصرين الأموي والعباسي؛

وكان لانتشار الفرق الإسلامية في العصرين الأموي والعباسي، تبلورت آراؤها في شكل المدارس التي تدافع عن اتجاهاتها وأصولها العقائدية والفكرية - الأثر الكبير والعظيم في ازدهار فنون الحوار؛ الذي كان يميل أحيانا الوصول إلى الحق فيكون حوارًا حقيقيا، وأحيانا يقصد به تغليب مذهب فكري على آخر، أو تغليب رأي على آخر فيكون جدلاً.

وقد ساعد على ازدهار الجدل التعصب عند بعض الفرق الإسلامية ودفاعها عن آرائها بشدة، اعتقادا منها أنها على حق وسواها على باطل، كما أن هجرة العلماء من بلد إلى آخر، وطلبهم للعلم والاستزادة منه، ونشر أفكار وآراء هذا الدين بين مختلف الشعوب، كان باعثا قويا على الاحتكاك الفكري، ونشأة الجدل، وكثرة المحاوراة والمناظرة، وساعد أيضًا على هذا الحوار والجدل تولد الفرق من بعضها؛ حتى أصبحت كل مدرسة فكرية تضم عشرات الفرق الإسلامية.

واستمرت الندوة في أداء دورها في العصرين الأموي والعباسي، وفيها كانت دور فنون الحوار والتشاور، كذلك في مجالس الخلفاء، وفي المساجد، والقصور.

ومن اللافت للنظر في العصر الأموي الحوارات التي كانت تتخلل خطب الوافدين على الخلفاء، وكانت هذه الوافدة غالبا ما تقدم على الخليفة، وقد سبق لها أن قالت ضده شعراً، يحفظه الخليفة أو أحد حاشيته؛ فيعاد عليها هذا الشعر، وتعاتب فيه؛ فتقره، وتصمم على رأيها، ولكن الخليفة في النهاية يجزل لها العطاء.

وقد ارتقى الحوار في العصر العباسي؛ نظرا لأن الفكر الفارسي أثر في الحياة الإسلامية، وكان يحمل معه ثمرات من الفكر اليوناني؛ لأن الفلسفة اليونانية كانت منتشرة في بلاد فارس قبل الإسلام، وكان هذا سببا في كثرة العلوم الفلسفية، وانتشارها بين المسلمين، وكانت المناظرات والمناقشات تعقد في كل مكان، وكثير منها كان يعقد في مجالس الخلفاء - مثل الخليفة المأمون الذي كان معجبا بالفلسفة اليونانية - وقد كانت هذه المناظرات موضوع سبق المجيدين للقول فيها؛ يتبارون في البيان وروعته، ويتسابقون في المعاني وأحكامها.

وقد سادت المناظرات في هذا العصر؛ لأن الحياة العقلية كانت لها السيادة، وعظم أمر العلم، وصارت المجالس ميدانا للمسابقة الكلامية والجدلية بين زعماء الفرق الإسلامية، وكان المتكلمون يحرصون على بلاغة الكلام والتأثير بالإقناع بعد الإفحام.

ومن عوامل ازدهار الحوار في العصر العباسي - أيضًا - ما دسَّه الزنادقة، وما دبروه للإسلام؛ بتأثير من الفرس الذين كانوا يريدون إحياء ملكهم القديم؛ فلما لم يستطيعوا ذلك عسكرياً، أرادوا تقويض الإسلام من الداخل بكثير من الآراء والمعتقدات، أثرت في ازدهار الحوار؛ فلم يجد الخلفاء بدا من محاربة الأفكار بالأفكار، والقضاء على كثير من تلك النظريات والمعتقدات الغربية على الإسلام؛ وذلك بالحوار، والجدل، والفكر المضاد.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن العصر العباسي كان عصر نضج العلوم العربية وبداية ازدهار الفكري وتكوين المدارس في مختلف العلوم المرتبطة بالقرآن والسنة، كما ازدهرت حركة الترجمة من اللغات الفارسية واليونانية والهندية إلى العربية، وتمكنت العقول العربية من استيعاب ذلك كله وهضمه وتمثيله، وتحويله إلى نظريات ومناهج تخدم العقيدة إثباتاً ودفاعاً، ومادة تساعد على ازدهار الفكر والثقافة العربية.

وهذه اللوحة التاريخية حول تاريخ الحوار عند اليونان والعرب في الجاهلية والإسلام والصور التالية؛ في النهضة الإسلامية، مما يجعلنا نتبع أنماطاً من الحوار مع الأمم السابقة من خلال القرآن الكريم في المبحث التالي:

## المبحث الثاني

### الحوار في الأمم السابقة في القرآن الكريم

الحق أسبق من الباطل، وهو كذلك أغلب وأبقى.

فالله «الحق» ولا شيء قبله، والله «الحق»، ولا شيء بعده ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ٣].

و«الحق» وهو القرآن، وهو الإسلام، وجد منذ بدء الخليقة، وإن تنزل على مراحل.

والحق «وهو العدل» وهو الأبقى ﴿يَوْمَ يَدْعِيهِمْ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُدْعَوْنَ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا كَفَرُوا قَدْ كُنَّا فِي عَفْوَكَ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

والحق والباطل.. بمعنى الخير والشر.. يصطرعان.

والحق وإن كان أسبق على الباطل، وهو بعده أبقى، فقد لحق به الباطل، وانطوت النفس من الأمرين؛ ليكون الابتلاء، ومن بعده الثواب والعقاب ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

❖ وأول الصراع كان من إبليس:

دفعه إليه كبر وكفر وإباء ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١﴾ وَأَسْتَكْبَرَ ﴿٢﴾ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة: ٣٤].  
ففقد مكانه في الجنة بين الملائكة، وخرج منها مذموماً مدحوراً ملعوناً إلى يوم القيامة.

ذلك أن الكبر أفقده قدر نفسه، ودفعه إلى التناول إلى مقام ربه، ليجادله في أمره، وليعطى نفسه بنفسه الخيرية على آدم أبي البشرية، وليسند هذه الخيرية إلى معاييره هو.. لا إلى ما شرع الله وأمر ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] مع أن الملائكة وهم من «نور» لا «نار» سجدوا وأطاعوا رب العالمين.

ومع أن المعيار الذي ارتضاه رب العالمين ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠]، ﴿ وَسَخَّرْنَا لَكُمْ مَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [الجن: ١٣].

ومع أن القاعدة قبل ذلك كله:

﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، ﴿ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

❖ ويقدم القرآن العظيم هذا النموذج التاريخي للحوار:

بين الله والملائكة وبين الله وإبليس في سورة البقرة في الآيات: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّيْ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٧].

وتأمل معنا هذا الحوار الذي صاحب الصراع بين بني آدم، وهو حوار تاريخي وتعليمي كذلك:

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَا قُنْتُكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٧﴾ لَنْ بَسَطَ إِلَى يَدِكَ لِتُقْبَلَ مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيعَى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ

الْخَيْسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ، كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوِيلْتَنِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ [المائدة: ٢٧-٣١].

وقد جاء في ذلك روايات عديدة.. نذكر منها:

قال السدي عن ابن عباس وعن ابن مسعود «إنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ومعه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما: هاييل وقاييل، وكان قاييل صاحب زرع.

وكان هاييل صاحب ضرع، وكان قاييل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أخت هاييل، وأن هاييل طلب أن ينكح أخت قاييل فأبي عليه، وقال: هي أختي ولدت معي وهي أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتزوج بها، وأنها قربا قربانا إلى الله عزَّجَلَّ أيهما أحق بالجارية.. «جذعة، سنبل» فنزلت النار فأكلت قربان هاييل «علامة القبول» وتركت قربان قاييل «علامة عدم القبول» فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي، فقال هاييل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١).

وبين آدم ونوح:

قيل كانوا أناساً صالحين: «ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر».

أحبهم قوم، وغالوا في حبهم..

حتى إنهم بعد موتهم أقاموا لهم «التمثيل» فصارت من بعد أصناما.

وهكذا، ارتفع الباطل؛ حتى عبد الناس الحجارة!

وجاء نوح؛ ليدعو إلى الحق:

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ [نوح: ٣].

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي مَعْصُومِي وَأَتَّبَعُوا مِن لَّدُنِّي مَالَهُ، وَوَلَدَهُ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [نوح: ٢١]  
 ﴿ وَقَالُوا لاَ نَدْرِكُكَ ءَالِهَتِكَ وَلاَ نَدْرِكُكَ وَدَا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَعْقُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (٢٣) ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا  
 كَثِيرًا وَلاَ نَرُدُّ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالًا ﴾ [نوح: ٢٣-٢٤].

﴿ ومن بعد نوح أبق سيدنا إبراهيم:

حطم لهم الأصنام وقال لهم ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسألُوهُمْ إِن كَانُوا  
 يَنْطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وتدرج بهم من الشك ليصل بهم إلى اليقين ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي  
 فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ (٧٦) ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي  
 رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ (٧٧) ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ  
 قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٧٨) ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِّكْرِ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا  
 وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٩].

وواجه أباه - وهو مشرك - واجهه بالحق الذي يدحض الباطل بأسلوب لين كريم يصل  
 إلى القلب، ويعذر إلى الله ألا يصد عن الحق بما ينفر القلب ﴿ وَأَذَكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبراهيمَ إِنَّهُ  
 كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ (٤١) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ (٤٢) ﴿ يَا أَبَتِ  
 إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ (٤٣) ﴿ يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ  
 الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ (٤٤) ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ  
 وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤١-٤٥].

ويفقد الأب - الضال - الحجة، فيلجأ إلى التهديد بالقوة شأن أصحاب الباطل والضلال في  
 كل زمان ومكان. ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبراهيمَ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي  
 مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦].

فيرد أبو الدعاء ردًا حائثًا لكنه لا يتخلى عن الحق:

﴿ سَلَّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧] «نهى الله عنه  
 بعد ذلك» ﴿ وَأَعْتَرْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي

شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ [مريم الآيات: ٤٣ - ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨] ويموت أبو إبراهيم على الكفر والضلال، ويبقى إبراهيم رائداً للحق والهدى؛ رغم ما ناله من عنت، وصد، وأذى.

﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْغَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٣﴾﴾ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ (التوبة: ١١٤-١١٥).

﴿١١٣﴾ ثم يأتي «موسى» يضرب به مثلاً أخيراً:

«موسى» الذي يمثل الحق.. المنزل من عند الله..

يتربى في حجر فرعون، الذي يمثل الباطل في أعتى صورة. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَائِكَةُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا فِرْعَوْنُ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُحُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القصص: ٣٨-٣٩].

﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ﴿١٨﴾﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ فَأَرَادَهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ فَخَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ١٧-٢٤].

هذا فرعون، قمة الباطل، قمة الضلال، قمة الكفر.

يواجه موسى الأعزل بالحق الذي معه.

فماذا يحدث؟

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ فغلبوا هنالك وأنقلبوا صغرين ﴿١١٩﴾﴾ وَاللَّيْلِ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢٢].

فيلومهم فرعون إن لم يستأذنوا في الإيمان:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْسَمْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكَ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأعراف: ١٢٣]

ويمضى إلى التهديد الرخيص الذي يمارسه كل طاغية لئيم:

﴿لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِمَّنْ خَلْفِ ثُمَّ لَأُسَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤].

فكانت قوتهم وثباتهم واعتزازهم بعقيدتهم:

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا

أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوْفَنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٥-١٢٦]

«وفي مكان آخر إجابة مشابهة لكنها أقوى دلالة على الإيمان الحق الذي ملأ، بل ملك

القلوب»:

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي

هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٦﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾

[طه: ٧٢-٧٣].

ويقدم القرآن العظيم في تاريخ الحوار بعد ذلك ما دار بين السيدة مريم وقومها

﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِمُ

مَنْ كَانَتْ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكُتُبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ

مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا

﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٢٨-٣٣].

ويأتي حوار من نوع آخر بين سيدنا عيسى عليه السلام وأنصاره من الحواريين:

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ

السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا

وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا

مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ

اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾

[المائدة: ١١٢-١١٥].

﴿ ولا نكاد نغادر هذا الحوار حتى يأتي حوار آخر بين الله عزَّجَلَّ وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۗ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۗ قَالَ  
سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِيٓ بِحَقِّٖ إِن كُنتَ قُلْتَهُ ۖ فَقَد عَلِمْتَهُ ۖ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِيٓ وَلَا أَعْلَمُ مَا  
فِي نَفْسِكَ ۗ إِنَّكَ أَنْتَ عَلٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِيٓ بِهِ ۗ إِن أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ  
شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۗ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ  
عِبَادُكَ ۗ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فَبِإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿﴾ [المائدة: ١١٦-١١٨].

### المبحث الثالث

## الحوار بين الرسول ﷺ والكفار:

ويأتي في الختام سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

نزل إليه الحق ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

فصدع بالحق ﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

وواجه الباطل.. بالأسلوب اللين الكريم ﴿وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١١) قُلْ لَا تَسْتَلُوكَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْتَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٦].

ويمضي الصراع، فيكذبونه؛ ويصفونه بالسحر، والجنون، ثم يؤذونه ويؤذون أصحابه، ثم يقاتلونه، والذين آمنوا معه.

وها هو القرآن العظيم يعلمنا كيف تكون دعوة هؤلاء الكفار إلى ساحة الإيمان فها هو الله عزَّجَلَّ يضرب لنا الأمثال؛ فيخاطب العقول والقلوب بأكثر من طريق:

فأما الأول، ففي قوله تعالى:

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٦-١٧].

وفيه يشبه رب العالمين الحق بالماء؛ بما يحمل من خير وحياة.

كما يشبهه بالمعدن النفيس أو المعدن المفيد.

ويشبهه الباطل بالزبد يطفو على الماء بما يحمل من غثاء، أو بالخبث يطفو حين يدخل المعدن النفيس النار.

كذلك يضرب الله الحق والباطل، فماذا تكون النتيجة؟

فأما الزبد فيذهب جفاء لا قيمة له؛ كما يذهب الباطل. ومعناه: لغة الذاهب الزائل.

وأما ما ينفع الناس «وهو الماء والمعدن النفيس» فيمكث في الأرض كما يمكث الحق على الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال.

وأما المثل الثاني ففي قوله تعالى:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

فقد صور الحق قذيفة - يطلقها الله الحق - ليصيب بها الباطل في دماغه فتزهقه وتهلكه!

وإذا كان هذا هو الصراع بين الحق والباطل...

فإن السؤال الذي يطرح نفسه، لم يعرضون عن الحق، ويدجأون إلى الصراع؟<sup>(١)</sup>

﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَقِنْتَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَاعَتِ اللَّهِ بِمَاجِدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

﴿يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

[البقرة: ١٤٦].

وهنا يرد التساؤل: إذا كانوا يعلمون الحق فلم يكتُمون، فلم يجحدون؟! ونستطيع أن

نتبين شيئاً من أسباب إعراض كفار مكة عن رسول الله ﷺ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا

لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] أي: مكة والطائف، عندئذ

فإنهم يريدون رجلاً ذا مواصفات دنيوية معينة.

ويرد القرآن الكريم عليهم ﴿أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] وتلمح شيئاً من عنادهم وتطاولهم على الله، ورجبتهم في الهلاك بشرط ألا يكون محمد ﷺ رسولاً، وذلك في سورة الأنفال ﴿وَإِذْ أُنزِلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣١-٣٢].

ويريدون بعد هذا رسولاً خاصاً بمواصفات الملك والعظمة الدنيوية، لكن الله تعالى له إرادة أخرى، تأمل معنا هذه الآيات الكريمة في سورة الفرقان ﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ، نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنَزَّلُ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكْوِينٌ لَهُ، جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلُ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ٧-١١].

ثم انظر إلى كفار مكة وهم يطلبون مطالب خاصة تدخل في أحلام الصحراء كي يؤمنوا، وتحكي سورة الإسراء هذا الحوار القرآني الفريد ﴿أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿١١﴾ أَوْ تُسْقَطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِلَهُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ فَيَلَا ﴿١٢﴾ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٤﴾ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْسُورُ مُطَمِّئِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٦].

ويحاول الكفار احتواء الدعوة الإسلامية، والتأثير عليها من خلال ترغيب الحبيب المصطفى ﷺ أو تهديده على النحو الذي أوردته كتب السيرة النبوية:

روي أن عتبة بن ربيعة - وكان سيدياً - قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد، فأكلمه وأعرض

عليه أمورًا لعله أن يقبل بعضها؛ فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ - وذلك حين أسلم حمزة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ - يكثرون ويزيدون - فقالوا: يا أبا الوليد قم فكلمه.

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال يا ابن أخي: إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به. من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها.

قال فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع.

قال: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك ريثا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء، وبذلنا فيها أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.. أو كما قال.. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال:

أفرغت يا أبا الوليد؟!

قال: نعم.

قال: فاسمع مني.

قال: أفعل.

قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَدَّثَنَا تَرْزِيلُ بْنُ الرَّحْمَنِ الرَّجِيعِيُّ (١) كَتَبَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ١-٤] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرأها عليه، فلما سمع عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره، معتمداً عليهما، يستمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال:

قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك!

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به! فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد - قال:

ورأى أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر، ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي قال به نبأ، فإن تصبه العرب كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.

هذا نموذج حوار يوضح لك سبب تعنتهم وغطرستهم مع رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>.

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث، أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رأيكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك.. ثم تفرقوا فلما أصبحوا.. خرج الأخنس بن شريق حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها،

قال الأحنس وأنا والذي حلفت به ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه في بيته، فقال يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟! قال:

تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف.. أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه! فقام عنه الأحنس وتركه<sup>(١)</sup>.

(١) سيرة ابن هشام: ص ٦٣.

## المبحث الرابع حوار القرآن الكريم مع الملحدين

لم تكن فكرة الإلحاد في وقت من الأوقات منتشرة انتشار فكرة الشرك، لأن الشرك إقرار بوجود الخالق وعدم توحيده بالعبادة، أما الإلحاد فإنه إنكار مطلق للألوهية، ونفى لوجود الله تعالى، إنه طمس لمعالم الفطرة، والمجتمع الذي جاء القرآن الكريم لإصلاحه يقر غالبه بوجود الخالق، وقد قال تعالى:

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

لكنهم اتخذوا آلهة أخرى لأغراض في نفوسهم منها الرغبة في التقرب إلى الإله فقالوا:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

ووجود الله تبارك وتعالى حقيقة لا تقبل النقاش والجدال؛ لأنها ضرورة تسري في الأحاسيس والمشاعر، وتتغلغل في أعماق النفس الإنسانية.

وإذا كان الماديون والطبيعيون يتظاهرون بإنكار وجود الله فإن هذا الوجود الإلهي يفرض نفسه على أحاسيسهم ومشاعرهم ويقولون به من حيث لا يشعرون. (إنهم يقولون بضرورة وجود قوة تسيّر هذه القوى الكونية، وسواء أضافوا هذه القوة إلى قانون العلية والسببية للكون أم قانون التفاعل المادي لتلك القوى كما يرددون. فإن هذا إحساس بوجود خالق مدبر لهذا العالم ولكنهم يكابرون فطرتهم وأحاسيسهم؛ فيلجأون إلى القول بأن وجود العالم كان مصادفة واتفاقاً، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع)<sup>(١)</sup>.

وإذا نظرنا إلى النصوص القرآنية لم نجد هدفها يوماً من الأيام إثبات وجود الله تعالى؛ لأن الإيمان بوجود الله ضرورة حتمية وبدئية لا تقبل الفطرة الإنسانية الأخذ والرد فيها وإن انحرفت بعض الفطر الإنسانية ومالت إلى الجحود فهذا لا يعني عدم الإحساس بوجود الله ولكنها أصيبت بنكسات قلبية أودت بها في المتاهات المظلمة، ولم تستخدم وما وهبها

(١) الإمام الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ٧٦ باختصار.

الله من تفكير للنظر في الكائنات والتبصر في الموجودات؛ لتستدل به على خالق هذا الكون ومدبره<sup>(١)</sup>.

ولذلك كانت طريقة حوار القرآن مع الملحدين لها طابع يختلف عن طريقة الحوار مع المشركين؛ فالقضية هنا أخطر من حيث نوعيتها؛ رغم أن الملحدين أقل عدداً من المشركين، ولكن إلغاء فكرة الألوهية يحتاج في أسلوب حوارهم إلى مناقشة العقل وإثارة الحواس لتصح الفكرة.

فالتصور المنحرف الذي يتقبل العقائد الخاطئة لا بد من تصحيحه، وقد رسم القرآن منهجاً للحوار بعد عرض قوهم وادعائهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا نَبَيِّنَاتٌ مِمَّا كَانُوا يَحْبَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَنبَأُنَا بِنَبَأٍ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِدُ بِخَسْرِ الْمَبْطُلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِئَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الجمانية: ٢٤-٢٨].

والمراد بالدهر: الزمن المعروف ولا يصح حمله هنا على أنه من أسماء الله تعالى لما يلزم من فساد المعنى في الآية على هذا الاعتبار.

ويلخص الإمام الشهرستاني ادعاءهم في قوهم: (غوت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) إشارة إلى الطبائع المحسة في العالم السفلى وقصرًا للحياة والموت على تركبها وتحللها والجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر<sup>(٢)</sup>.

مثل هذه الدعوى رد عليها القرآن الكريم، ورد تلك المقدمات التي أوردوها دليلاً لدعواهم، وقد رفض مقدماتهم بأمرين:

١- بنفي العلم عنهم ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الجمانية: ٢٤].

٢- إثبات الظن والتخرف في دعواهم ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾ [الجمانية: ٣٢].

(١) زاهر الألمي: مناهج الجدل، ص ١٢٦.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل، ج ٢، ص ٢٣٥ «بتصرف».

وبنفي المقدمات بطلت النتائج، وهكذا نرى أن القرآن قد استخدم في حوارهِ مع الملاحدة العديدة من الأدلة الإقناعية منها، ما يتصل بالكون، ومنها ما يتصل بالعقل؛ مما يمكن أن نتناوله في جانب واحد هو الأدلة العلمية.

### ١- الأدلة العلمية:

وللعلم قاعدتان:

#### القاعدة الأولى: العدم لا يخلق شيئاً:

فالعدم الذي لا وجود له لا يستطيع أن يصنع شيئاً لأنه غير موجود، فإذا تأملنا في المخلوقات التي تولد في كل يوم من إنسان وحيوان ونبات وتفكيرنا في كل ما يحدث في الوجود من رياح وأمطار وتعاقب الليل والنهار وحركات منظمة فإن العقل يجزم بأن هذا ليس من صنع العدم فقوانين المادة تنص على أنه لا بد لكل موجود من موجد.

وهذا ما لفت القرآن الكريم انتباه المحاور إليه ليخاطبهم بهذه القاعدة فقال تعالى:

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

#### القاعدة الثانية: التفكير في المصنوع يدل على بعض صفات الصانع:

فإن كل شيء يوجد في المصنوع يدل على قدرة أو صفة عند الصانع فلا يمكن أن يوجد شيء إذا كان الصانع لا يملك قدرة أو صفة مكنته من فعل ذلك الشيء. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْلَفَ الْبَيْلَ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيْفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الجمانية: ٣-٦].

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

فالقرآن يريد أن يدفع الإنسان إلى التفكير في الكون كله بما فيه من ظواهر ومخلوقات من أجل البحث عن أسراره وعن القوانين الطبيعية المودعة فيه التي تحكمه وتوجهه في حركته، فأراد من الإنسان أن يرجع إلى صفاء فطرته<sup>(١)</sup>.

كما تلاحظ: أن القرآن الكريم لا يقتصر على دعوة الإنسان للتفكير في ذلك كله بل يحاول أن يطرح أمامه الخطوات الأولى في هذا السبيل ليدله على بدايات الطريق. «والقرآن الكريم أكثر جدا من الآيات الكونية لكنه ساقها في أساليب مختلفة يجمع مرة الآيات السماوية إلى الآيات الأرضية في إطار واحد، وأخرى يذكر الآيات الأرضية منفردة للتبنيه على عموم الاستدلال بها لقربها من مشاهد الحس الممد للعقل العام عن طريق الحواس.

فالحواس هي النوافذ المادية التي يستطيع العقل أن يدرك بواسطتها - في أول خطوة نحو الحقائق الكونية - والروابط العنصرية والوشائج الطبيعية بين ذرات الموجودات على تنوع أشكالها واختلاف أنواعها فيحكم ويستنبط»<sup>(٢)</sup>.

فالكون كتاب الإيمان:

١- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْبَاهُ بِهَ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِبُ الرِّيحُ الرِّيحَ وَالسَّحَابُ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

هناك أوتار في القلب البشري أعدها الله سبحانه وتعالى لتلقي إيقاعات معينة فتهتز فإذا اهتزت انطلقت الفطرة تبحث عن الله، وقد تهتدى في بحثها، وقد تضل ولكنها في كل حال تنطلق، فإذا انطلقت اهتزت الأوتار ولا تنقطع في ليل أو نهار، فالكون أعظم إيقاع وقع على القلب البشري<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: عبد المجيد الزاندي وآخرون: الإيمان، ص ٢٩-٣٢. بتصرف.

(٢) محمد صادق عرجون: القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، ص ٢٧٨.

(٣) علي بن جابر الحربي: منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية، ص ١٣٥-١٣٦.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۗ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ ۗ تُؤَفِّكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُنْتَبِهٍ أَنْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٩].

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسٍ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ مِثْلَيْنِ يُعْشَىٰ لَيْلَ النَّهَارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِّنْ مَّتَجَبِرَاتٍ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَمَنْجِيلٌ صِنُونًا وَغَيْرَ صِنُونٍ يُسْمَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقِضَلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٢-٤].

إنها الحياة تتحرك أمام نظر الملحد بجهاها الرائع لتخاطب وجدانه وعقله وفكره وفي نفسه السؤال من خلق هذا ومن أوجده؟

ونحن لا نقصد من خلال عرض هذه الآيات أن يستشهد بها المحاور عند حوارهِ مع الملحد؛ لأن الملحد منكر لله، وإنما فيها دلالات تعلم المحاور كيف يخاطب عقل الملحد بحشد الآيات الكونية، وقد يثير اهتمام المحاور فيصل للإيمان بالله.

ونلاحظ أن القرآن لا يتحدث عن مظاهر الكون بالطريقة الفلسفية الجامدة ولا بالطريقة الخيالية إنما بالواقع المحس الذي لا يستطيع أن يخرج عن نطاق حواس أي إنسان<sup>(١)</sup> وذلك بالطريقة العقلية.

(١) انظر القرآن والملحدون ص ٢١١.

ويكون ذلك بطرح الفكرة المعتادة إلى جانب فكرة الإيمان بالله ثم طرح الفروض المحتملة؛ فتبدأ بعملية النفي والإثبات لكون النتيجة في مصلحة الفرض الذي يثبت أمام النقد كما ورد في قوله تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

❖ فهناك فروض ثلاثة:

١- أن لا يكون هناك خالق.

٢- أن يكون الخالق هو المخلوق نفسه.

٣- أن يكون الله هو الخالق<sup>(١)</sup>.

وقد طرحت الآيات الفرضين الأولين بأسلوب إنكارى؛ لضعفهما وبطلانها، وذلك بأن العقل والعلم والحس يرفض وجوداً من غير موجود، وأن الفرض الثاني مستحيل أيضاً؛ لأن خلق الإنسان نفسه يفرض كونه سابقاً لنفسه في الوجود فيلزم أن يكون الشيء موجوداً في حالة عدمه، وهذا تناقض ومستحيل، فلم يبق إلا الفرض الثالث وهو أن الله هو الخالق وهو الصحيح، ويثبت ذلك تعالى في قوله:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ تَبْدُلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا الْمَغْرُمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ جُحَافًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرِجْءًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٥٧-٧٤].

(١) سناء محمود عبد الله عابد: مرجع سابق، ص ٩٠.

### المبحث الخامس

## الحوار مع منكري البعث من العرب وغيرهم

تعتبر قضية إنكار البعث من أهم القضايا الأساسية التي واجهها الإسلام إذ أن الناس تعودوا أن يقصروا علومهم على المحس الملموس، وهذه نظرة قاصرة محدودة، فاستبعدوا أن يتحول الجماد إلى حياة، وأن تعاد حياة الإنسان بعد الوفاة.

ومن ناحية ثانية فهم لا يريدون البعث؛ لأنهم يرفضون قضية الحساب والجزاء ﴿بَلْ يَرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة: ٥].

والبشرية بما هو مرتكز في فطرتها من حب اللقاء تقاوم فكرة العدم المحض لأنها تحس بالحسرة الصارخة عندما تحتقن فيها بواعث الأمل باستمرار هذه الحياة، وقضية إنكار البعث والجزاء ممتدة في الأمم الماضية عبر القرون والعصور، وقد ذكر الله تعالى أقوال الأمم المكذبة؛ فقال تعالى:

﴿ قَالُوا أءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٨٢-٨٣].

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْآيَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: ١٢-١٥].

﴿ شبه منكري البعث:

١- استبعاد إعادة الأجساد بعد تحللها، وتفتت العظام.

٢- أن الإنسان إذا مات وفارقتة القوة لا تعود إليه مرة أخرى.

٣- أن السباع لو أكلت إنساناً وصارت أجزاء المأكول في أجزاء الأكل فكيف يمكن التفريق بينها.

والقرآن الكريم يرد على جميع المنكرين للبعث مهما اختلفت بيئاتهم وتنوعت أساليبهم بمنطق الحجة والبرهان، ويقوم البراهين الحسية والعقلية على المعاد، ولقد نهج القرآن في استدلاله على إمكان البعث وتحقيق وقوعه منهجاً قوياً يجمع بين ما فطرت عليه النفوس من الإيمان بالمحس وبين ما تقرره العقول السليمة ولا يتنافى مع الفطر المستقيمة.

### الطرق التي استخدمها القرآن في الاستدلال على البعث:

#### ١ - طريقة ذكر قصص السابقين:

وهم الذين رد الله عليهم أرواحهم بعد موتهم، وقد رأى ذلك من كان في زمانهم.  
 أ- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

ب- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمَنْ نَفْسًا فَاذْرَاهُ ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُبْحِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَرُبِّيكُمْ ؕ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٢-٧٣].

ج- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢٤٣].

د- قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ؕ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

ولذلك نلاحظ أن القرآن اتبع عدة وسائل لتصحيح هذه الفكرة وناقشها معهم.

## ٢- الطريقة العقلية:

هي قياس الإعادة على البدء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

كما يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أُنْتَمِتُمْ مِّنْهُ تُوفِّدُونَ ﴿٨٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٧٨-٨٢].

فإن القدرة على الانتقال من العدم إلى الوجود في البداية تستلزم القدرة على تلك في النهاية؛ لأن أساس الإمكان والاستحالة فيها واحد لا يختلف ولا يتعدد.

## ٢- الطريقة الحسية:

ذلك بتقريب ما يستبعدونه إلى ما يقع تحت محسوساتهم ويتكرر مشهده عليهم دائما:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَنْوَفُّ وَمِنْكُمْ مَّن يُرْدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَبِّرُ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

وفي هذه الآية دليان على إمكان البعث؛ دليل في الأنفس ودليل في الآفاق، إنه نظام الحياة الذي لا يتغير، إيجاد من العدم، ثم مصير إلى العدم، ثم حياة، وهذا حال الإنسان والنبات الذي يرونه في واقعهم: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفًّا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤١﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي

فَطَرَكْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٤٩﴾  
[الإسراء: ٤٩-٥١].

وهي أنكم مهما تفرقتم وعلى أية حالة كنتم فالله قادر على بعثكم وإعادةكم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

بهذا المنطق الواضح البرهان القاطع يرد القرآن الكريم على منكر البعث مما يراه، وبما يقع تحت إدراكه من الأمور.

## المبحث السادس تاريخ الحوار مع اليهود في المدينة

### (أ) خصائص اليهود في القرآن الكريم:

اليهود هم أبناء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم المنتسبون إلى دين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد انطوا على أنفسهم دائماً، وعاشوا بمعزل عن أي مجتمع عاشوا فيه، وجاء الإسلام إليهم فوقفوا منه موقف عداة تام، حيث حاجوا النبي ﷺ كثيراً واعترضوا على كل ناحية دعاهم إليها، وبتبعضنا لبعض آيات الجدل في القرآن الكريم نلمح خصائصهم الطبيعية التي استمرت معهم. وانتقلت من جيل إلى جيل. وأهم هذه الخصائص ما يلي:

#### ١- العنصرية في الجنس:

يؤمن اليهود أنهم من سلالة جنس فاضل عظيم يفوق بعظمته سائر البشر وأنهم رزقوا عبقرية لا نظير لها. جاء في البروتوكول الخامس: «إننا نقرأ في التوراة أن الله قد اختارنا لحكم الأرض، وقد وهبنا الله العبقرية لنقوم بها العمل، وإذا ما وجد عبقرى في صفوف الأعداء فقد يكون في وسعه مقاتلتنا، ولكن أنى لعبقرية جديدة أن تقف في وجه المخضرمين من أمثالنا. وسوف يتخذ القتال صورة من اليأس لم يشهد لها العالم مثيلاً. لقد انقضى الوقت الذي تقوم فيه لغير اليهود عبقرية»<sup>(١)</sup>.

ولقد أطلقوا على أنفسهم «شعب الله المختار» وهي في الحقيقة عنصرية زائفة لا تستند على شيء من الحقائق لأن الحقائق في وضوحها بينة كما يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) محمد خليفة التونسي: بروتوكولات حكماء صهيون، ص ص ٤٧؛ ٤٨.

واليهود كغيرهم من الأمم جاءهم رسول، ونزل لهم كتاب. ولكنهم مع الأيام اكتسبوا بعض الأوهام وألبسوها ثوب الدين ونسبوها إلى الله وزعموا أنه جاء في سفر يشوع أن يشوع أخذ كل الأرض على حسب ما وعد الرب موسى وأعطاهما يشوع ميراثا لبني إسرائيل على حسب أقسامهم وأسباطهم واستراحت الأرض من الحرب<sup>(١)</sup>.

والقرآن الكريم في حوارهِ وردهُ عليهم يوضح هذه الحقيقة، ويدفعها بموضوعية يقول تعالى:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوهُ ﴾ [المائدة: ١٨].

يذكر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه أتى النبي ﷺ عثمان بن أصرار وبحري بن عمرو وشاس ابن عدي فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله وحذرهم نعمته فقالوا: «ما نخوفنا يا محمد ونحن أبناء الله وأحباؤه» نزلت الآية. وادعاهم هذا باطل ولذلك أمر الله رسوله أن يرد عليهم فقال له:

﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة: ١٨]. أي: إن صح ما زعمتم فلا شيء يعذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسوخ وقد اعترفتم بأنه تعالى سيعذبكم في الآخرة بالنار أياما بعدد أيام عبادتكم العجل.

وإن كان الأمر كما زعمتم لما صدر عنكم ما صدر ولما وقع عليكم ما وقع «والحقيقة المؤكدة أن اليهود بشر كسائر البشر يغفر الله لهم أو يعذبهم إن شاء.

ومن هذه العنصرية كذبوا ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِي ﴾ [البقرة: ١١١] وكانت أحلامهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم وأن يردوهم كفارًا، وأن لا يدخل الجنة غيرهم، وكانت تلك أمانتهم لكن الرسول ﷺ يقول لهم: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١] أي هاتوا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة وكان اليهود يعتقدون أنهم لن يعذبوا في النار إلا أربعين يوما بعدد أيام عبادتهم العجل ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠].

(١) سفر يشوع: انظر الإصحاحات ١٣ - ٢١ وفيها بيان تقسيم الأرض على عشائر بني إسرائيل.

وكان الجواب على هذا الافتراء من الله حيث قال لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

وبالطبع ليس لهم برهان على ادعاء دخول الجنة وليس معهم عهد من الله بعدم العذاب إلا أياما ولذلك كان الرد عليهم إفحاما لهم.

ويبقى الواقع المجرد وهو الاعتماد على الإيمان والعمل ولا شيء سوى ذلك. وما ادعوه من عنصرية فهو من أكاذيبهم التي درجوا عليها تزكية لأنفسهم وفخرا بجنسهم.

واليهود حديثا هم اليهود في غرورهم وعنصريتهم وتعاليمهم خاصة مع العرب ولأمر ما ذكر الله رأيهم في العرب وبينه من واقع حديثهم حيث إنهم قالوا ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَكِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥] والأميون المذكورون هم العرب يسمون بهذا الاسم في مقابل أهل الكتاب<sup>(١)</sup>. ويتصور اليهود أن العرب ليس لهم قدرة على المطالبة بحقوقهم لأنهم عبيد لليهود وخدم. هكذا يتصورون العرب الأميين ولا يؤمنون بسواه<sup>(٢)</sup>.

ومع هذا الغرور العنصري أشار القرآن الكريم إلى ملمح خطير قد يكون مفتاح هذا التعالي، وهو إحساس اليهود باحتقار الناس لهم وشكهم في هذا الأمر دائما، وهذه القضية تأتي في وضعها الطبيعي؛ لأن الشعور بالنقص يدفع صاحبه إلى إبراز ما ليس فيه، وتقمص صور خارجة عنه. يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُوعًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

فموسى عليه السلام يبلغهم أمرا من تعاليم الله، لكنهم يردون عليه من عقدة النقص فيهم. ومن إحساسهم بأن الناس يسخرون منهم، فيسألون موسى: أنتخذنا هزوا وسخرية بما تأمرنا به، لكنه عليه السلام يرد عليهم بأن إحساسهم غير صحيح؛ لأن الهزء في تبليغ أمر الله جعل وسفه لا يليق برسول.

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١، ص ١٨٩.

(٢) أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، القاهرة، دار الكتاب المصري، ١٩٧٩، ص ٣٩١.

إن العنصرية اليهودية ثابتة في نفوسهم ومستكنة في غرائزهم. وقد اشتهروا بها حتى صارت خاصة من خواصهم.

## ٢- اعتقاداتهم مادية،

يميل اليهود دائماً إلى التجسيد في عقائدهم. ويربطون إيمانهم بالمادة طبيعتهم. وينظرون إلى الله نظرهم إلى الملموس، ويصفونه بأوصاف لا تليق إلا بالحوادث، تقول توراتهم «وسمعا - أي آدم وحواء - صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار فاختماً آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة»<sup>(١)</sup> هكذا تقول التوراة إن الله يمشي ويظهر بوجهه ويختبئ آدم ومعه حواء من وجه الله ومقابلته.

وتقول أيضاً: دخل بنو الله على بنات الناس وولدت لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة. ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكاره هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه»<sup>(٢)</sup> فتشير بذلك إلى لحوق الحزن والندم والأسف بالرب. وما نشأ ذلك إلا من إيمانهم المادي - وعقيدتهم التجسيدية.

ونظرة اليهود إلى الرسل هي الأخرى امتداد لماديتهم، حيث يلحقون بهم النقص والسوء.

تقول التوراة عن لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه. لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادية كل الأرض. هلم نسقى أبانا خمراً ونضطجع معه. فنجيء من أيينا نسلا. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة. ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها. ولر يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي أنت معي فنجيء من أيينا نسلا فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه. ولر يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحبلت ابتنا لوط من أبيهما...»<sup>(٣)</sup>.

(١) سفر التكوين. الإصحاح الثالث فقرة ٨.

(٢) سفر التكوين الإصحاح السادس فقرات ٤، ٥، ٦.

(٣) سفر التكوين الإصحاح التاسع عشر فقرات ٣٠ - ٣٦.

وتذكر التوراة أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ كان لا يأنس في شيخوخته إلا إلى فتاة جميلة فتقول «وشاخ دواد. تقدم في الأيام. وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ. فقال له عبيده ليفتشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء ففتشوا على فتاة جميلة جدًا. وجاءوا بها إلى داود»<sup>(١)</sup> وتقول التوراة عن سليمان إنه «أحب نساء غريبة كثيرة. وكانت له سبعمائة من السيدات وثلاثمائة من السراري. فأمال النساء قلبه وراء آلهة أخرى. ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه»<sup>(٢)</sup>. وهكذا أنزل اليهود بالرسل صفات النقص والحسة وجردهم من روحانية الوحي وعصمة الرسالة.

والحوار القرآني يبين طبيعة اليهود هذه. ويعقب على فسادها، ومن ذلك قوله:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَكَتْنَا مَا قَالُوا وَقَتَلْنَاهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

روي أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كتب مع أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرصًا حسنًا. فقال فنحاص اليهودي: إن الله فقير حتى سألتنا القرض<sup>(٣)</sup>. وذلك أنهم لا يجدون مانعًا من تشبيه الإله بالمجسمات. وقد رد الله على قولهم وذكر أنه جريمة تضاف إلى جرائمهم الأخرى وسوف يعذبون عليها.

ومن هذا الحوار القرآني معهم قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

فهم لغلوهم في التشبيه والتجسيد لا يستبعدون أن يكون لله ولد هو عزيز، ويرد عليهم هذا الزعم فيقول تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالُوا سُبْحَانَ اللَّهِ أَنْ يُؤْفَكُوا﴾ [التوبة: ٣٠] لأنهم بقولهم كاذبون، ويشبهون الكفرة تمامًا.

(١) سفر الملوك الأول. الإصحاح الأول فقرات ١-٤.

(٢) سفر الملوك الأول. الإصحاح الحادي عشر فقرات ٢-٣.

(٣) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب، ج ٣، ص ١٥٩.

وكان لتأصل العقيدة المادية في اليهود أن قالوا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما رأوا قومًا يعبدون أصنامًا. ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فقد جادلوا موسى في شأن الأصنام وأرادوا العودة إليها. فبين لهم جهلهم وبطلان ما هم عليه، وما خديعتهم السريعة بعجل السامري إلى من هذا الطريق المادي.

وبين الحوار القرآني كذلك نظرة اليهود إلى الرسل حيث استهزءوا بموسى وقالوا له ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] وقالوا ﴿فَأَذْهَبَ آتَتْ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَاهَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولما طلب منهم هارون أن يتركوا عبادة العجل ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّى يُرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩١]. وهكذا قامت مجادلتهم على الهزء والسخرية وعدم المبالاة كشأنهم مع الرسل.

واليهود ينظرون إلى محمد ﷺ والقرآن الكريم نظرة سيئة تنبئ عن طبيعتهم يقول السموأل الغربي من أعظم أبحار اليهود الذين أسلموا: «وأما الرسول محمد ﷺ فله فيما بينهم اسمان فقط. أحدهما «فاسور» وتفسيره الساقط. والثاني «موشكاع» وتأويله المجنون، وأما القرآن العظيم فإنه يسمى فيما بينهم «قالون» وهو اسم للسوأة بلسانهم يعنون بذلك أنه عورة المسلمين وسوأتهم «وجاء في البروتوكول الرابع عشر» عندما نصبح أسياد الأرض لا نسمح بقيام دين غير ديننا، ومن أجل ذلك يجب علينا إزالة العقائد، كل العقائد.<sup>(١)</sup>

وهكذا فإن عقيدة اليهود دائماً ترتبط بالمادة في كافة جوانبها.

### كيف يحاور القرآن الكريم اليهود؟

إن إحاطة الداعية بخصائص اليهود تجعله يواجه الدعوة لهم بما يناسبهم ويسوق لهم أقوالاً تلائمهم، وقد ضرب القرآن الكريم وهو يحكي أسلوب دعوتهم نوعاً من هذه الملائمة. فنراه يذكرهم بالمزايا الراقية التي وضعها الله لهم حيث أعطاهم الكتاب والحكم والنبوة ورزقهم طيبات كثيرة وجعلهم أفضل الخلق في عصرهم يقول تعالى حاكياً أسلوب دعوة اليهود.<sup>(٢)</sup>

(١) بروتوكولات حكماء صهيون، ص ٧٨.

(٢) أحمد غلوش: مرجع سابق، ص ٢٩٧.

﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْسِلُكُمْ فِي الْبَرِّ لِيَتْلُوا آيَاتِي لِيَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوْلَ كَافِرٍ بِهِ ۗ وَلَا تَشْرَوْا بِنَبِيِّكُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤٠-٤١].

وهذه الآيات تخاطب اليهود بيا بني إسرائيل أحب الأسماء إليهم، وتبين لهم نعم الله عليهم، وتطالبهم بأن يوفوا عهودهم، ويؤمنوا بالقرآن المصدق للتوراة وأن يتركوا المادية ويحافوا الله وحده.

ومن المعلوم أن كون القرآن مصدقاً للتوراة يرفع الإحساس بالنقص من فكر اليهود، وهو يسمع القرآن الذي يقدر التوراة، ويبين أنها تحوى هدى ونوراً كهده تماماً، ولذلك جاءت الإشارة إلى الوحدة بين القرآن والتوراة مبكرة في العهد المبكى.

ومن مراعاة القرآن لخصائص اليهود نجده يقدر علماءهم الذين هم قادة القوم وسادتهم. يقول تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

والخطاب في الآية وإن كان موجهاً للنبي ﷺ فهو في الحقيقة موجه للمتلقين كعادة الأسلوب القرآني في كثير من مواضعه، وبذلك يخاطب الله المؤمنين، ويطالبهم أن يقدروا علماء اليهود، ويسألوهم عن حقيقة القرآن المنزل على سيدنا محمد ﷺ.

ومن هذه المراعاة تنويه القرآن بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وببني إسرائيل جميعاً بتوراتهم؛ فيقول:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ۗ هُدًى وَذِكْرًا لِلأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [غافر: ٥٣-٥٤].

ومع كل هذه المراعاة لغرور اليهود وعنصريتهم يحاول القرآن أن يغير أخطاءهم، ويصح عقائدهم على صورة التساؤل فيقول تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠]. ثم يأخذهم إلى الحق من منطلق التساؤل فيقول لهم: ﴿قُلْ يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا

نُشْرِكُ بِهِ، شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤]. يقول الرازي: إن هذه الآية تتضمن منهاجاً يشد كل عقل سليم، وطبع مستقيم؛ إنه كلام مبني على الإنصاف وترك الجدل»<sup>(١)</sup>.

ويتمشى القرآن مع فكر اليهود، ويسلم لهم بظنهم في أنفسهم؛ تمهيداً لأخذهم إلى الإيمان؛ يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]. ذلك أن قضية المودة مع الله وكونهم أبناءه، وهو وليهم وهداهم تقتضي حب الإسراع إليه. والموت من أجل لقائه؛ فطالبهم القرآن أن يتمنوا الموت دليلاً على صدق زعمهم. لكنهم لا يحبون لقاء الله، ويكرهون الموت، يقول تعالى ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٧].

(١) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب، ج ٢، ص ٧٠٤.

## المبحث السابع الحوار مع المنافقين

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (يهدم الإسلام ثلاث: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون)<sup>(١)</sup>.

إن أخطر نوع من الناس الذين واجههم الإسلام هو ذلك النوع الذي لم يعرف في بداية الدعوة إذ لم تكن ثمة حاجة إلى ظهوره منذ البداية، حيث الكفر يمارس نشاطه من مركز قوة لا يخشى شيئاً. لذلك نجد الكافرين يصرحون بكفرهم ويحاربون رسول الله وصحابته بكل أنواع الأسلحة المادية والمعنوية دون وجل حتى إذا انتقل رسول الله ﷺ إلى المدينة وقويت شوكة الإسلام وتبدلت الصورة؛ بدأ الكفار بالحرب الخفية، وهي النفاق بإظهار الإيمان وإبطال الكفر.

(والنفاق من الناحية النفسية يعتبر نتيجة لضعف النفس وعدم قدرتها على التصريح بمعتقداتها، فالنفوس إذا كانت قوية تصرح بمعتقداتها مهما ترتب على ذلك من نتائج؛ لأن النفاق يورثها عذاباً في النفس ووخزاً في الضمير يهون احتمال عذاب البدن دون احتماله، أما النفوس الضعيفة فإنها عندما تواجه معتقداً قوياً يخالف معتقداتها، وهو يملك الهيمنة عليها لا تصرح بمعتقداتها بل تضعف أمام تلك القوة المهيمنة عليها، وتحاول أن تسلك طريقاً يؤمن لها سبيل الحياة في ظل تلك القوة المهيمنة عليها، وإن كان ذلك يؤدي إلى تغطية معتقداتها.

وكلما زادت قوة الدولة المهيمنة عليها وتكررت انتصاراتها زاد ضعف تلك النفوس الضعيفة واشتد هلعها، وقد يوجد النفاق ممن يملك قوة وهيمنة على المسلمين؛ فيظهر لهم الإسلام نفاقاً ليحتفظ بمركزه بينهم.

ومع ذلك فإن هذا لا يخرج النفاق عن كونه ضعفاً في النفس لأن صاحب النفس القوية لا يرضى لنفسه أن يقيم حكمه على مداهنة من يختلفون معه في العقيدة)<sup>(٢)</sup>.

(١) الإمام جعفر القريابي: صفة النفاق وذم المنافقين، ص ٧٢.

(٢) عبد العزيز عبد الله الحميدي: المنافقون في القرآن الكريم، ص ١٩.

وللمنافقين أهداف تحملوا من أجلها هذه المخاطر وأخفوا معتقدتهم الحقيقي، ومن أهم هذه الأهداف:

١- الحصول على المصالح المادية: وذلك لأن المسلم في دولة الإسلام له الحرية التامة في التصرف بأمواله في حدود تعاليم الشريعة، كما أن له حقوقا مشروعة في بيت مال المسلمين تضمن له عيشًا كريما. وإذا كان من أهل الكفاءة فإنه يستطيع أن يصل إلى عمل في الدولة يتقاضى به أجرا من بيت المال وإذا اشترك في الجهاد كان له حظ من الغنائم، فالمنافقون يلاحظون هذه المصالح التي تفوتهم فيما لو أظهروا كفرهم.

٢- الحصول على المصالح المعنوية: وذلك لأن المسلم في دار الإسلام إذا كان متمسكًا بدينه يحصل لدى ولاة الأمر على الجاه الرفيع والمنزلة العالية بين المسلمين، وهذا الأمر مرغوب فيه، وتشتهيه بعض النفوس كما تشتهي المال وأكثر فإذا ما أظهر المنافقون التقوى والورع حصلوا على ما يريدون من هذا الهدف.

٣- اتخاذ النفاق وسيلة للوصول إلى مراكز الحكم والقيادة: أما تلبية نداء شهوة الرئاسة تسيطر على بعض الناس، وإما للتوصل بذلك إلى تنفيذ مخططاتهم الخبيثة وأهدافهم السيئة إذا كانوا من أصحاب المبادئ الهدامة، وبغير النفاق لا يستطيعون الوصول إلى ذلك ما داموا في دار الإسلام؛ لأن المسلمين مهما كانت درجة إيمانهم سيمقتونهم ويحاربونهم.

٤- وقاية لأنفسهم وأموالهم: وذلك لأن الإسلام يعصم دماء معتنقيه وأموالهم، والمنافقون من الكفار إذا أظهروا كفرهم عاملهم المؤمنون معاملة الكفار والمرتدين.

٥- اتخاذ النفاق وسيلة لحرب الإسلام والمسلمين: وذلك بنشر الرذائل في المجتمع الإسلامي، ومحاولة تشييط المؤمنين عن التمسك بدينهم والجهاد في سبيله وتشكيك ضعفاء الإيمان منهم بمعتقداتهم، والتجسس على دلالة الإسلام لصالح أعدائها، وهم بهذا يجمعون بين محاربة المؤمنين وكسب رضا أعدائهم عنهم والتقرب إليهم.

إن الخطاب مع المنافقين له سمات خاصة تميزه، وهو المبدأ الذي طلب الحق تبارك وتعالى من رسوله الكريم ﷺ أن يتعامل معهم على أساسه؛ حيث قال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحریم: ٩]. وهو تعامل تبدو عليه سمات الشدة والقسوة مصحوباً بالتهديد والوعيد<sup>(١)</sup>.

والمنافق كما قال عنه الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (المنافق يعبد هواه لا يهوى شيئاً إلا ركبته). قال أيضاً: (من النفاق اختلاف اللسان والقلب واختلاف السر والعلانية واختلاف الدخول والخروج)<sup>(٢)</sup>.

ولذلك نجد أن الدعوة الإسلامية أكدت على جهادهم ونبذهم من المجتمع شأنهم شأن الكافرين خطرهم عظيم وكلهم يخافون الجهاد ويخافون القتال ولا يشاركون فيه.

يقول تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

ويبين الله تعالى فرحهم بمكاسبهم الدنيوية ونظرتهم الحاضرة القاصرة: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

ونلاحظ الغلظة في الرد عليهم، وبيان عدم فقههم ومعرفتهم: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [٨٦] ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٦-٨٧].

وقد تبدو من بعضهم رغبة إلى الخروج للحصول على المغانم، ولكن يأتي والعقاب من الله تعالى بالحرمان الكلي من الذهب لأن خروجهم فيه ضرر على صفوف المسلمين من ناحية، ولأن الإنسان المسلم صاحب عقيدة صحيحة ومبدأ ثابت من ناحية أخرى، أما

(١) زاهر عواض الألمي: مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص ٤١٩.

(٢) الإمام جعفر الفريابي: صفة النفاق وذم المنافقين، ص ٨٩-٩٠.

الذبذبة فهي من صفات المنافقين الذين يرفضون الخروج ثم يرغبون فيه أو يغيرون آرائهم حسب مصالحهم الدنيوية<sup>(١)</sup>.

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْتُوكَ لِلخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ نَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ نُفْتِنَا مَعِيَ عِدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ ﴾ [التوبة: ٨٣]. وهم ينتحلون الأعداء، ويظهرون الرغبة في التوبة ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْنَا ﴾ ولكن الله تعالى فضحهم ﴿ يَقُولُونَ بِاللَّسْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ ويواجههم بالحقيقة التي يتجاهلونها ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ ويقرر الحقيقة العظمى التي تضاد النفاق المبني على الخفاء فيقول: ﴿ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [الفتح: ١١].

وهكذا نرى أن القرآن اتبع معهم عدة أساليب.

### أولاً: استخدام أسلوب التوبيخ والتعريض:

فهذه الآيات تصرح بتوبيخهم ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفتح: ١٢].

ثم ينتقل الخطاب إلى زيادة في التوبيخ باستخدام التخويف من الله تعالى والتذكير بأن من يفعل ذلك فهو من الكافرين ومصيره النار بأقصى أسمائها ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُوبْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾ [الفتح: ١٣].

### ثانياً: استخدام الأسلوب العقلي:

ثم يأتي التحريك للعقل فلو كانت عندهم عقول يفكرون بها ما وصلوا إلى هذه الحالة. فيقول تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا ﴾ [الفتح: ١٤]. فمن كان تحت ملك الملوك كيف تسول له نفسه معصيته؟ وبين

(١) سناء محمود عبد الله زيد: مرجع سابق، ص ١٠١.

الله تعالى أنهم بجهلهم يظنون أن في قدرتهم معاندة الله والخروج عن أمره وتحدي إرادته ولكن السبب دائماً أنهم لا يفقهون، كما وصفهم الله بذلك بقوله تعالى:

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرِهِمْ لِنَأْخُذْهَا ذُرُونا نَبْعَثَكُمْ يُبِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الفتح: ١٥].

### ثالثاً: استخدام أسلوب فضح الصفات:

والآيات تفضح صفات المنافقين.. ولكنها فضيحة مقرونة بالتذكير وليست فضيحة مجردة فمن طبيعتهم:

١- الشك في وعد الله، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَآ وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ آفْطَارِهِمْ سُلَيْمًا أُفْتِنَهُ لَأْتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَهْدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدَّابِرَّ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنعُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٢-١٧].

٢- والبخل والكيد ضد الدين: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٧].

وهكذا نلاحظ دائماً أن المنافقين ينسون حقيقة مهمة جداً، وهي أن الأمر كله لله وأن مقاليد السماوات والأرض بيديه سبحانه، وأنه المعطي المانع المحيي المميت المعز المذل، ولذلك نجد الآيات تتجه إلى تذكيرهم بهذه الحقائق، وتصفهم بعدم

الفقه: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨].

٣- المعصية والإعراض عن حكم الله إلا إذا كان في مصلحتهم: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ [النور: ٤٧-٤٩].

ثم يقرر الله تعالى بعد إخراجهم من الإيمان أن مشكلتهم الحقيقية أن قلوبهم مريضة فيقول:

﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ آرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: ٥٠].

٤- الخوف من الموت والحرص على المصالح الدنيوية: قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعَ اللَّهُ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ أَنْقَىٰ وَلَا نُنْظَمُونَ فَبَيِّنًا ﴾ [النساء: ٧٧].

وتأتى الحقيقة التي يفر منها المنافقون ليقررها رب العزة والجلال ﴿ آتِنَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

#### رابعاً: الصراحة والوضوح في بيان المصير:

هذا هو أسلوب القرآن في بيان مصير المنافقين، وحقيقة حالتهم في الآخرة، عسى أن يوقظ هذا الأسلوب تلك المشاعر، وعسى أن تجد هذه الكلمات صدى في نفوس بعض منهم.

فإن كانت المصالح الدنيوية قد طغت على عقولهم فأعمت أبصارهم أين هم يوم القيامة مما كانوا يتظاهرون به؟

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ لِيَلْزِمُنَّكَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْظَرُونَا نَقْلِسَ مِنْ تَوَكُّمِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوا لَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّرْتُمْ بِالْأَمَانِيِّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَرَّكُم بِاللَّهِ الْعَرُورُ ﴿١٤﴾ قَالِيَوْمَ لَا يُؤَخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَانِكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد: ١٣-١٥].

وهكذا نرى منهج القرآن في الخطاب مع المنافقين هو المواجهة والتصريح بالعقاب والتخويف والتذكير بآيات الله وقدره الله وعظمته، وفضح صفاتهم ومواجهتهم بها والتذكير باليوم الآخر وما سيؤولون إليه.

## المبحث الثامن

### حوار القرآن الكريم مع المؤمنين

خاطب الله تعالى جميع الفئات وأصلح جميع النفوس ودعا الكل بأساليب مختلفة كلا على قدر إيمانه وعلى حسب نفسيته ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. وقد استعرضنا فيما سبق تاريخ الحوار مع المشركين والملحدين ومنكري البعث والمنافقين، أما هنا فسوف نعرض طريقة القرآن الكريم في خطاب الفئة التي استجابت لربها ونفذت تعاليمه، واتخذت قيمه منهجاً وسلوكاً.

إنها فئة قليلة ولكنها جديرة بالناية والاهتمام، إذ هذه الفئة التي تحمل المشعل لتضيء غيرها، وهي التي تنقل أحكام الله تعالى إلى الناس أجمعين ولذلك نلاحظ أن خطاب الله تعالى لهذه المجموعة خطاب توجيه لكيفية تعاملهم مع غيرهم. وهم أصحاب منهج ورسالة واضحة. قال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا آتَىٰ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَأُمرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥]. كما نلاحظ حوار المؤمنين مع غيرهم من المدعويين.

### طريقة دعوة المؤمنين لأهل الكتاب:

#### أ- بيان مواطن الاتفاق معهم مثل الايمان بأنبياهم:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٢٥] قُولُوا ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [١٢٦] فَإِن ءَأَمِنُوا بِمِثْلِ مَا ءَأَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِن لَوْلَا فَآمَنَّا بِهِمْ فِي شِقَاقِ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٥-١٣٧].

فالقضية قضية دعوة بالحسنى وليست إجبارية فإن استمعوا فقد انتفعوا وإلا فالله ولي المؤمنين، وهنا يحس المؤمن بالأمان لسماح الله تعالى وعلمه بما يدور.

ب- الجدل بالتي هي أحسن:

يضطر المؤمنون أحياناً إلى الدخول في مناظرات مع أهل الكتاب لإثبات ما يدعون إليه وإنكار ما يدعيه غيرهم وعلى المؤمن أن يكون منهجه في الجدل واضحاً وأن يؤكد الاتفاق على المبادئ، فالإله واحد، والمبادئ المنزلة من عند الله واحدة، وعلى هذين المبدأين ينبغي أن يكون النقاش فإذا حصل الظلم والتعدي جاءت نهاية النقاش فكل له دينه قال تعالى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ج- الحرص على إسماعهم آيات الله:

فإن للقرآن تأثيراً عجبياً على البشر، وعلى النصارى بشكل خاص، وقد تواترت الأخبار بسماع الكفار للقرآن وبدا أثره واضحاً على أكثرهم، فهذا عمر بن الخطاب وهذا سعد بن زرارة وغيرهم كثير، فمن كان سبب إيمانه سماع هذه الآيات التي تلامس شغاف القلوب فلا يستطيع لها رداً، ولذلك يلفت القرآن انتباه المؤمنين إلى استخدام هذا السحر الحلال لدعوة النصارى.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَهُهُمُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسَاتٍ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَنذَرْتَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٥].

وهكذا كان النجاشي عندما تليت عليه آيات من سورة مريم.

منهج المؤمنين في دعوتهم لغيرهم:

١- المؤمن حريص على دعوة غيره خائفاً عليهم:

والخطاب مع الكافرين أيضاً له فهم وأسلوب، إن إحساس الآخرين بمحبة الداعي



وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ (الشعراء: ٣٨ - ٥١)

إنه اليقين بالله والإيمان الذي لامس شغاف القلوب؛ فسقطت هيبة فرعون الزائفة أمام إجلال الله وعزة الله؛ فصدعوا للحق، ووثقوا في الله، ورجوا مغفرته ورحمته.

### ٣- المؤمن يعترف بفضل الله تعالى؛

قد تختلط المفاهيم على كثير من الناس، ويظنون أنفسهم في أعلى الدرجات قرباً من الله تعالى لمجرد التزامهم بشيء من تعاليم الله تعالى، وعندما يحس الإنسان بفضل الله عليه وبأنه أسدى معروفاً لله تعالى، ولكنه الحقيقة أن الله صاحب الفضل والمنة أن هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وبيان حقيقة الإيمان ويحث النفس على الالتزام بهذه الصفات؛ حتى يصل الإنسان حقاً لأعلى الدرجات.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تَزِمْنَا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمْتُمْ بِلِ اللَّهِ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِيمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات: ١٤-١٨].

### ٤- المؤمن يعرض الأدلة لزيادة الإيمان؛

كثير من الناس عندما يطالب بالدليل يتهمه الناس بعدم الإيمان وأنه لا ضرورة لذلك، وهذا إبراهيم عليه السلام من أولى العزم من الرسل ومع ذلك طلب رؤية كيفية الخلق ليس للإيمان ولكن للاطمئنان:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَئِمَّةٌ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لِّيَطْمَئِنَّ

قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعِيًّا وَأَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿البقرة: ٢٦٠﴾.

وقد يحتاج المؤمن في وقت من الأوقات للأدلة وبيان الحكمة في بعض الأمور حتى يصل إلى الطمأنينة والثبات على الرأي.

#### ٥- المؤمن يبشر المؤمنين برحمة الله:

إن الكلمات التي يخاطب بها المؤمنون إخوانهم كلمات كلها خير وبركة ورحمة، إن الحديث بين الأخوة ليس كالحديث مع غيرهم؛ إنه حديث يتقاطر منه الحب وتفتح فيه آفاق السلام والود والخطأ عندهم غير مقصود ويتبعه الإصلاح.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿الأنعام: ٥٤﴾.

#### ٦- المؤمن يدعو غيره للاحتكام إلى الله:

فليس لهم خيرة إذا قضى الله ورسوله أمراً؛ لأنهم عرفوا معنى الألوهية ومعنى العبودية ففازوا وأفلحوا.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿النور: ٥١-٥٢﴾.

والمؤمنون طبيعتهم التسليم والطاعة، وإن أخطأوا فعن جهل، وباب التوبة مفتوح لهم، وهم دعاة ولا يتحدثون إلا بخير، ويجادلون بالتي هي أحسن، ويذكرون الناس، ولا يأسون مهما كانت نوعية من يخاطبون.

ونلاحظ أن خطاب القرآن الكريم لهم خطاب رقيق ليس فيه تعنف ولا توبيخ؛ بل فيه قبول وتبشير بالفوز، ووعود بالفلاح.

وإذا كنا قد أبرزنا طرفاً هنا من تاريخ الحوار الإنساني وتطوره، وكيف حاور القرآن الكريم جميع الفئات، لكلٍ طريقته الحوارية التي تتناسب معه، وتقدم وصفاً لخصائص المخاطبين الذين يوجه الحوار إليهم، هذا العرض التاريخي يأخذنا إلى تناول نوعين جديدين من الحوار، وهما الحوار مع الذات والحوار مع الآخر. وهذا ما سنتناوله بعد قليل في الفصل الخامس بحوله تعالى.